

النسابغون في أوطانهم

للأستاذ محمود عزت عرفه

—•••••

كما تتوارى هذه الشمس في النهار المدجن خلف كسف من السحاب مكروم فلا يفتأ ينم عليها ساطع من سناها ، يوشى أطراف السحابة بلا لانه ، ويكاد ينبثق على جنباتها ابتهاقا.. كذلك تستكن المبقيات النواشيء في زوايا بعض النفوس غير منفكة عن إرسال أقباسها الدالة عليها ، في سدفة هذا الظلام المكتنف صاحبها ، من فقر أو ضعف ، أو اتضاع شأن أو بكورة سن ، أو غير ذلك من سائر هذه الموقفات التي تؤخر نبجي المراهب ، وتعلم السيل إلى المجد بالشوك والصخور ..

ولهذه النباهة التي تهبط على الخاملين فجأة دلائل وإرهاصات قل من يدركها في حينها ؛ لكن قل أيضاً من لا يعجب لنفسه كيف فاته أن يدركها في ذلك الحين ! ومن هنا كان المرتقى أمام المصاميين شاقاً طويلاً المدى ، لا يكاد يوفى على غايته منهم إلا كل صافي الجواهر في المبقرية ، قوى اللنة على مواجهة مصاعب الحياة ومقارعة أحداثها ..

والمصامى محروم — أول أمره — مما يستند إليه الناس عادة من سالف الحرمة أو سابقة الفضل ؛ وهو ماقى بالكيد منكوب بالمعارضة ، موزع جهده بين التقدم تارة ودفع التعويق تارات ، مقسومة قواه بين البناء من جانب وتوقي الانهيار من آخر ..

وأغرى الناس بمنابدته وأشدهم بأساً في مضارته ، هم أدناهم إليه مكاناً ، وألصقهم به وشيجة ونسباً .. من أهل بلده وذوى قرياه ، ومن رصفائه وأنداده الذين يشركونه في سن أو عمل ، أو نزعة وأتجاه ..

وكأنما يجب هؤلاء لفرد من أوساطهم ، أو من أدانيهم ، يسمو إلى منزلة لم يروه من قبل لها أهلاً ، ويبلغ من جاه الحياة

أو من تراثها حظاً لم يقدروا له أن يبلغه . وما أشد تقتير الناس في تقديرهم .

فلا غرو — وهذا هو الوضع — أن يكون لأكثر المصاميين ثارات قديمة عند أوطانهم الأولى حيث مرابع طفولتهم ومراتع صباهم .. تلك التي شهدت من بواكير ضرهم وبأسائهم ما لم يشهد سواها ؛ ثم عند مواطنهم الأقرين فيها ، وهم من ذاقوا على أيديهم أول مذاقوا من كؤوس الحرمان والأذى ، وتجرعوا أول مآثر عروا من مرارة التشييط والجحود . وإنها لثارات وذخول تأتي على أصحابها إلا ترقب المودة إلى هذه الأوطان في موابك النصر بعد أن فعلوا عنها في ركاب اللذل والصغار ...

وليس من محض المصادفة أن نرى شكبير يارى في أخريات أيامه إلى قريته ستافورد أون آفون ، غلفاً وراءه لندن مبسطة اليدين تحميه بمزيد من ثروتها وجاهها . ولا مرأى في أن صورة عجيبة النظر كان يلتمع مرآها في ذهن الشاعر الكبير وهو يقف على باب قريته كهلاً في سن الخمسين .. صورة لشاب فويق العشرين يتسلل لوأذاً من أبواب هذه القرية قبل ثلاثين عاماً ، وقد جلله عار السرقة وحز في بدنه وثاق السجن ؛ هو وليم شكبير نفسه التي أبى أن يحجوا عار ذلك الحرب في سواد الليل البهيم بغير هذا العود الظفر الكريم في وضوح نهار مشرق سنى ..

وكذلك كان شأن تشارلز دكنز الكاتب الروائي الخالد . فقد أنفد في قرية شاتهام ستة أعوام من طفولته البائسة جابه خلالها الفقر في أقبح صوره ، وتجرحه في أمر طعومه . وكان أعظم مايهره يوم ذاك قصر « جادز هيل » القائم على ربوة في الطريق بين شاتهام وجرافسند ؛ ولقد طالما داعب أبوه مشاعره بإمكان استجواذه على هذا القصر إذا هو جد واجتهد ، وأصبح رجلاً ذا شهرة ومجد . ولنا نمجب لهذه الأمنية وإينالها في الطموح قدر ما نمجب لتشارلز دكنز وهو يمود بد أربعين حولاً فيحققها في جلتها وفي تفصيلها ؛ بأن يتلك القصر الجميل

الأصمى مع أحد البقالين على باب بيته بالبصرة ، وما كان يعيره به من الفقر ، ويضعه عليه من انصرافه عن طلب المجدى من شئون العيش ، حتى قال له مرة : يا هذا اقبل وصيتى . أنت شاب فلا تضع نفسك ، واطلب معاشاً يعود عليك نفعه ، وأعطى جميع ما عندك من الكتب أطرحها في هذا الدن وأصب عليه من الماء للعشرة أربعة ، وأنبذه ، وانظر ما يكون منه .

على أن ضائقة الأصمى تفرجت بعد حين ؛ وأقبلت الدنيا عليه حتى أوطأه بساط الرشيد ، فاستفاضة هنالك شهرته ، وأرى من مال ومن جاه . وكان من أكبر همه يوم ذاك أن يلم بموطن صباه ، فترقى في استئذان الرشيد حتى أذن له ، وكتب إلى والى البصرة باكرامه والتحنى به .. قال الأصمى ^(١) : فلما كان في اليوم الثالث تأملت أساغراً من جأني ، فإذا البقال وعليه عمامة وسخة ، فقال : كيف أنت يا عبد الملك ؟ فاستضحكت من حماقته وخطابه لى بما كان يخاطبني به الرشيد . قلت : بخير ، وقد قبلت وصيتك وجمعت ما عندي من كتب العلم ، وطرحتها في الدن فخرج ماترى ...

على أن هذه الذكريات « الشقية » التي تربط الإنسان بموطنه الأول ليست مما يطيف بحياة كل نابغة قلقت في البلاد ركبته بل ربما كانوا يتخذون الرحلة عن الوطن الأثير الكريم — باباً إلى التقدم في الحياة ، ووسيلة إلى تحقيق كرائم النايات فيها : من إحراز مال وجاه ، أو جمع معارف وعلوم ، أو تقويم طبائع مستخذية وشحذ همم كليئة . وقد كان من مواطن العجب عند القوم — ولا يزال — أن يروج أمر من لا ينفك جلس بيته ، وأن يحرز معالي الأمور من لم تنهض به همته إلى التغرب في طلابها ^(٢) . فليس كل مقرب إذن طريد وطنه أو ضحية ظلم

(١) الفرج بهمد الشدة للقاضي التنوخي (الفصل السابع : فيس استنفذ من كرب وضيق خناق ، بأحدى حالتي عمد أو اتفاق .

(٢) قال ابن خلدون في تاريخه ، عند الترجمة لشرف الدين أحمد ابن كال الدين الأربلي : كان اشتغال شرف الدين المذكور على أيه بالموسل ، ولم يترب لأجل الاشتغال ، وكان التقهات يقولون : نعب منه كيف اشتغل في وطنه وبين أهله ، وفي عزه واشتغاله بالدنيا ، وخرج منه ماخرج ؟ انتهى .

بما فيه ، ويقضى في رحابه ختام أيام حياته وأطيبها . ولقد طوف دكتور في مدائن إنجلترا وقراها ما طوف ، وحظي بطيب القسام ولذاذة التكرم في سويسرا وأمريكا وسواهما من البلدان .. فلم تكن بقعة واحدة في جنبات هذا العالم النسيح لتستهوى نفسه بمثل ما استهووا ذلك المكان الذي شهد مذكته وضيحه ، فأبت عليه نفسه إلا أن يشهده — بعد حين — بحده وعزته ونعماءه .

على أن لورد بيرون لم يحظبنا حظي به صاحبا من هذا الشعور الجميل .. شعور التغلب على مصاعب الحياة ، والانتصار على الزمن وأهله في نفس المكان الذي تسجلت به الهزيمة السابقة ^(١) ، فقد غلب الموت هذا الشاعر على أغر أمانيه ، وراح يوجد بآخر أنفاسه في ميسولوجي من أرض يونان وهويتهم في مرارة بكلمته الباقية : لست أخاف الموت ... ولكني أتساءل لماذا لم أذهب إلى إنجلترا قبل مقدي إلى هذا البلد !!

ونحن إذ ننقل فتصفح سجل الأدب العربي نرى الأصمى — راوية البصرة — أحد من دهبوا بعنت الأقربين ، ومنوا بكيد الأكفاء . فقد نشأ بالبصرة مقللاً رقيق الحال إلا من ذكاء مفرط ونفس وثابة طموح .

وكان مايلقاه من شيخه عطاء بن مصعب — وقد فتحت على يديه أزاخير عبقرته — أمراً رائعا عظيماً . بلته يوماً أن الأصمى اتخذ حلقة ، واجتمعت إليه فيها جماعة ، فناظله ذلك . ولما فرغ من حلقة استتب أصحابه فقال : مروا بنا إلى ظاهر البصرة ! .. قال راوي الحديث ^(٢) : فخرجنا حتى مررنا بشيخ معه أغر رعاظ وعليه جبة صوف : فقال له : يا قريب . فقال : لييك ! قال : ما فعل ابنك الأصمى ؟ فقال : هو عندكم بالبصرة فقال : هذا أبو الأصمى لئلا يقول هذا إنه من بني هاشم !!

ويذكر القاضي التنوخي في كتابه (الفرج بعد الشدة) قصة

(١) من طرائف ماقرأت أن الألمان وقوا الهدنة التي فرضوها على الفرنسيين عام ١٩٤٠ م في نفس المكان من غابة كوميات ، بل وفي مركبة التظار ذاتها ، التي وقوا بها شروط الهدنة المقررة عليهم في عام ١٩١٨ (!!)

(٢) انظر ترجمة عطاء بن مصعب في معجم الأدباء لبانوت

ترك مكة ؟ قال : تركتها وقد أحجستُ مَعامها وأمرُ سلها
وأعذقُ إذخِرَها . فحاش صدره الطاهر بأرق الحنين وآخر
الاشتياق ، ثم غنم يقول : دع القلوب تقر !^(١)

ألا لله ما أحلى العز والكرامة في أرض الوطن ! فلتلهما
يتجرع العقلاء كؤوس الذل والهانة مغترين . يتحمون مشاق
التطواف طلباً لدعة المقام ، ويتعمدون ظهور المعاطب التماساً
لمواطئ النجاة ومهابط الأمن والسلامة :

تقول سليمى لو أقت بأرضنا ولم تدر أنى للمقام أطوفُ
رب خفض تحت السرى ، وغناء من غناء ، ونفرة من شحوب !
وليس يحس قدر هذه النعمة إلا كبار النفوس ممن بغالبون
الأيام فيقتلون أو يقتلون ، ويشربون كؤوس الحياة من أرشى
وشرى حتى الثمالة ... ولعل في رأس القاعة من هؤلاء كافي الكفاة
الصاحب بن عباد - وزير آل بويه - قال القاضي الجرجاني في
بعض حديث له عنه : إن الصاحب يقسم لي من إقباله وإكرامه
بجرجان أكثر مما يتلقاني به في سائر البلاد . وقد استعفيته يوماً
من قرط تخفيه بي وتواضع لي فقال :

أكرم أخاك بأرض مولده وأمدّه من فطك الحسن
فالمسر مطلوب وملتمس وأعزّه ما نيل في الوطن
ثم قال : لقد فرغت من هذا المعنى في المينية ، فقلت :
لعل مولانا يريد قولي :

وشيدتُ مجدى بن قويم فلم أقلُ ألا ليت قومي يعلمون صنمى
فقال : ما أردت غيره ، والأصل فيه قوله تعالى : ياليت قومي
يعلمون ، بما غفر لي ربى وجعلني من المكرمين .

محمد عزت عرفه

للكلام بقية

الدرس بقوس الأميرة

(١) وفي أمالي القائل أن الهى صلى الله عليه وسلم سمع بلالا ينشد

هذا البيت :

ألا ليت شمرى هل أيتى ليلة بواد وحوى إذخر وجليل

فقال : خفت يا ابن السوءاء !

مواطنيه ، وإنما قد يفارق وطنه وأهله من لا يزال يحن إلى سالف
سعادته هنالك حنين النيب إلى أعطانها ، وقد يبلغ إلحاح هذه
الذكريات السعيدة على النفس حداً تفوق به شقى الذكريات وما
تدفع إليه من رغبة التشتى وتذوق حلاوة الانتصار ، مما ضربنا
له الأمثال آنفاً .

وكان طاهر بن الحسين الخزاعي ، قائد الخليفة المأمون والملقب
بذى اليمنين ، أحد من أضنام هذا الشعور الأخير .. شعور
الحنين إلى الوطن وتعلق النفس بذكريات سعيدة فيه - حتى
لنقص عليه من سروره الحاضر وسعادته المتأناة .

قال له بعض جلسائه يوماً وقد بلغ من الجاه في دولة المأمون
ما بلغ : ليهنك ما أذكرته من هذه المنزلة التي لم يدركها أحد من
نظرائك بخراسان . فأجاب طاهر : ليس يهيننى ذلك ، لأنى لأرى
عجائز « بوشنج » يتطلعن إلى من أعالي سطوحهن ..

وإنما يقول ذلك لأنه ولد ببوشنج وبها نشأ ، وكان جده
عليها حاكماً . ومن اجتمع لهم شقى الذكريات وسعيدها ، فحدا بهم
إلى أوطانهم حاديان ، وتمهد أمامهم نحوها سيلان مهيمان -
نينا محمد عليه أفضل الصلوات .. ففى مكة نشأ وترى ملحوظا
بناية من ربه ، كريماً على نفسه وعلى قومه ، يظله من قبيلته أرفع
لواء ويكنه فيها أشرف بيت ؛ وفى مكة أيضاً لى الإعراض والأذى
من قرش صنوا . فيها لقّب الصادق الأمين حقاً وإنصافاً ، ثم
وسم بالشاعر والكذاب نبياً وإسرافاً .

فليس عجيباً بعد هذا أن يكون حنينه إلى مكة قويا بليغاً يؤثره
شوق غلاب إلى عهود هنالك كريمة ومشاهد محبة أثيرة ، وأن
ينضاف إلى هذه الحنين شعور آخر قوى بالرغبة في مجابهة هؤلاء
القوم الذين أخرجوه من داره مجابهة يزلزل بها عقائدهم المتنوية ،
ويزيل بها تلك النشاة التي رانت على أعينهم ، فيعرفوا قدر دينهم
في الأديان ، ومنزلة رسولهم بين رسل الله المكرمين : « قيل ادخل
الجنة ، قال ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربى وجعلني من المكرمين » .

ومن علامم الشعور الأول ما كان من شأنه صلى الله عليه وسلم
يوم قدم عليه أصيل الخزاعي من مكة فقال له : يا أصيل ، كيف